اهتمام عالمي بجهود مدير عام الآثار والمتاحف مأمون عبد الكريم

الصحافة الأوروبية وصفته: مقاوم لا يتعب من تنبيه الضمائر للآثار السورية

| الوطن

نشرت صحيفة الفيغارو بتاريخ ١٣ تشرين الثاني مقالاً بعنوان: (مأمون عبد الكريم، المقاوم)، بقلم كلير بوملاير Claire Bommelaer، ومما جاء فيه:

«– لا شيء يُظهر تعبه الخفي إلا كلامه السريع. ما عدا ذلك، يبدو أن مدير الآثار والمتاحف في سورية مأمون عبد الكريم لا يتعب منذ وصوله إلى أوروبا يوم الإثنين ٩ تشرين الثاني. إنه يحاول منذ ثلاث سنوات إنقاذ التراث السوري من القنابل والنهب، ويسعى إلى تنبيه الضمائر الغربية حول «المجازر الثقافية» التي يجري تدبيرها في بلده، ويقول: «إذا لم يتم القيام بأي شيء، وإذا لم يساعدنا أحد، أؤكد لكم أنه سيتم تدمير تدمر يوماً ما. انظروا إلى حلب: إنها تعيش الوضع نفسه الذي عاشته فارصوفيا عام ١٩٤٥».

نشاطه خلال وجوده في أوروبا

أمضى أسبوعاً كاملاً وهو يكرر رسالته العاجلة. قالها أمام علماء الآثار في المدرسة العليا في باريس يوم الإثنين ٩ تشرين الثاني، ثم في مكتب المديرة العامة لليونيسكو إيرينا بوكوفا يوم الثلاثاء ١٠ تشرين الثاني، ثم في لندن أمام المتبرعين في مؤسسة World Monument Fund يوم الخميس ١٢ تشرين الثاني. كما شارك في مؤتمر البناء التاريخي Demeure historique في باريس. يجب أن يكون هذا الرجل (٤٨ عاماً) محباً للمزاح في حياة أخرى. عندما وقف أمام عدسة مصور صحيفة الفيغارو مقابل علم اليونيسكو، قال مازحاً: «ما اسم البلد الذي أقف أمام علمه؟»، ثم اختفت ضحكته الساطعة. إن مأمون عبد الكريم مستهدف من داعش، ولكنه لا يريد الدخول في «الجدل». كما لو أنه يريد حماية نفسه، يكرر بلا ملل أنه «لا يجب الخلط بين السياسة والثقافة»، وأن الثقافة تستحق أن نضع الأحقاد والخلافات جانباً. يتحدر مأمون عبد الكريم من أم سورية سريانية وأب أرمني شاهد والديه يُقتلان قبل تبنيه من عائلة عبد الكريم عندما كان عمره ثماني سنوات. يشعر مأمون عبد الكريم أنه في وسط مآسي الإنسانية. لا يمكنه أن يفعل شيئاً تجاه ذلك، لكنه يقول: «بالمقابل، يجب الحفاظ على الثقافة والتراث اللذين يجمعان الشعوب».

جهده في المحافظة على الآثار السورية بعيداً عن النزاع

وضع مأمون عبد الكريم مقتنيات ثلاثين متحفاً سورية في مكان آمن منذ بداية النزاع، كما فعل جاك جوجار Jacques Jaujard عندما قام بإفراغ متحف اللوفر عام ١٩٤٠. يقول مؤكداً: «إن ثلاثمئة ألف قطعة أثرية في مكان آمن اليوم» في لغة فرنسية متقنة مشوبة بلكنة شرقية محببة. تحدث عن الشاحنات المحملة بتماثيل بلاد الرافدين والسلسلة المتضامنة من ألفين وخمسمئة موظف حكومي - بغض النظر عن موقفهم من هذه الحرب الأهلية - والأخطار الجنونية. ارتفع الخطر درجة أخرى منذ عام ٢٠١٢ مع تقدم الدولة الإسلامية. تحول العمل العاجل إلى المواقع الأثرية التي وقعت فريسة «المافيات»، وتعرض حراسها للذبح أحياناً لمجرد وجودهم فيها. قال مأمون عبد الكريم: «في سورية، إن الموت والخوف والحزن تخيم على جميع العائلات».

حياة قاسية وتمسك بالوطن

في بداية النزاع، طلبت ابنته مغادرة البلد لأنها كانت خائفة، وأجابها قائلاً: «هل تريدين أن يُنظر إلى والدك كجبان فيما بعد؟ يجب أن نبقى هنا». تعيش عائلته وتصارع الحياة منذ ذلك الوقت مع زوجة تحمل شهادة الدكتوراه في الآثار وطفلين يبلغ عمراهما تسعة واثني عشر عاماً. إنه أستاذ في الجامعة، ويذهب إلى الجامعة يومياً، وقال: «ليس لدي تيار كهربائي إلا ثماني ساعات يومياً، وتصل المياه كل ثلاثة أيام، ولكن شبكة الإنترنت wifi تصبح أفضل مساء».

شرح وجهات النظر والحرب الاعلامية

تتقرب وسائل الإعلام منه بإلحاح منذ عام، وينظر إليها بمنزلة طوق النجاة في الوقت الذي ابتعدت العديد من الدول عنه. إنه يرد خلال أربع وعشرين ساعة بشكل عام، وهو مُقتنع بأن الحرب الإعلامية مهمة أيضاً، ويعرف أن المنظمات الثقافية الكبرى ونظراءه في الخارج يقفون إلى جانبه. قالت المديرة السابقة لقسم الآثار الشرقية في متحف اللوفر بياتريس أندريه سالفيني Béatrice André-Salvini: «إنه عالِم كبير. نحاول الحفاظ على بعض العلاقاتَ العلمية معه». لكنه لا يقوم بأي انتقاد لفرنسا التي قطعت العلاقات الدبلوماسية مع سورية. إنه فرانكوفوني، وحصل على شهادة الدكتوراه بالآثار من جامعة سان كانتان ان إيفلين Saint Quentin en Yvelines، ويُظهر ألماً صامتاً تجاه قرار وزارة الخارجية الفرنسية. تساءل مأمون عبد الكريم قائلاً: «هل سيعود الفرنسيون إلى سورية يوماً ما؟ هل سيشعرون بالعار من هذا الهروب، وهم الذين كانوا وراء التنقيبات الأثرية في سورية، وأعطوا لغتهم إلى علم الآثار؟» في إشارة إلى الحب الزائل الذي كان يكنه تجاه فرنسا. حاول صديقه السفير دانييل روندو Daniel Rondeau في أحد الأيام تنظيم موعد له مع الرئيس فرانسوا هولاند، وقال السفير: «لم يكن أمامنا إلا عدة ساعات، ولم يكن ذلك ممكناً»، وأعرب عن اعتقاده أنه لا بد «من المرور عبر لقاء من أجل أن تتحرك الأمور».

وقع حادث ساهم في تحريك الخطوط عندما حصل الاغتيال الوحشي بتاريخ ١٨ آب للمدير السابق لمتحف وموقع تدمر الأستاذ خالد الأسعد، أثار هذا الاغتيال صدمة دولية. فجأة، بدأ الجميع يدرك حجم وحشية داعش، وإحساسه الحاد بالإعلام السقيم. أكد مأمون عبد الكريم أمام أطفال خالد الأسعد الأحد عشر أن موت والدهم لن يكون سدى، ويقول اليوم: «لاحظت تحولاً في الضمائر. سيكون هناك ما قبل وما بعد ١٨ آب».

..ومن حوار أجراه جورج مالبرونو معه نلحظ أهمية ما يقوم به

• كم يبلغ عدد المواقع الأثرية المتضررة منذ عام ٢٠١١؟

تضرر ثلاثمئة موقع أثري في سورية من أصل عشرة آلاف موقع. تضررت هذه المواقع بسبب أربعة أنواع من أعمال العنف: أولاً، المواجهات بين المتمردين والقوات الحكومية مثل حلب التي أصبحت ساحة معركة. ثانياً، أعمال التدمير الناجمة عن التنقيب المخالف للقانون الذي بدأ عام ٢٠١٣ في ماري وأفاميا. ثالثاً، الأضرار الناجمة عن أسباب إيديولوجية كما فعل داعش في تدمر. أخيراً، أضرار أخرى ناجمة عن أعمال البناء المخالفة حول بعض المواقع الأثرية من أشخاص فقدوا منازلهم.

• أين وصلتم في إنقاذ التراث السوري المهدد بسبب الحرب؟

أغلقنا جميع المتاحف في سورية منذ انتشار العنف في نهاية صيف عام ٢٠١٢، وبدأنا بنقل القطع الأثرية إلى أماكن آمنة وسرية في دمشق وأماكن أخرى. كان هاجسنا نهب متحف بغداد بعد سقوط النظام عام ٢٠٠٣، وكنا نريد بذل كل الجهود لتجنب مثل هذا السيناريو. في ذلك الوقت، لم يكن داعش هو الذي يُخيفنا، لأنه لم يكن موجوداً آنذاك. جاء واحد وثلاثون ألف قطعة أثرية من مدينة دير الزور التي تحاصرها الدولة الإسلامية اليوم، وأكثر من أربعمئة تمثال من تدمر. في دير الزور، نجحنا بإنقاذ تاريخ سورية في بلاد الرافدين، وحافظنا بذلك على ثمرة عمل أكثر من مئات البعثات الأثرية الفرنسية والأميركية والإيطالية التي قامت بالتنقيب خلال مئة عام على الأقل. قمنا بالشيء نفسه في متاحف حلب وحمص وحماة ودرعا. نجحنا بإنقاذ الجزء الأساسي من القطع الأثرية في المتاحف، ولكن الوضع أقل مدعاة للرضى في المواقع الأثرية.

• كيف يمكن حماية هذه المواقع الأثرية، ولاسيما تدمر؟

نحن نواجه عدة أوضاع من أجل إنقاذ المواقع الأثرية المهددة. إذا كانت الحكومة ما زالت موجودة، فنحن نتوجه إلى الشرطة والجمارك الذين يتابعون هذه المسائل. إذا لم تعد الدولة موجودة، نتوجه إلى النخب المحلية– المثقفين ورجال الدين ومسؤولي العشائر– ونطلب منهم مساعدة زملائنا في مديرية الآثار والمتاحف الموجودين على الأرض من أجل الرد على اللصوص والمافيات. لأننا ما زلنا ندفع رواتب عشرات الموظفين الحكوميين في المناطق المتمردة. بالنسبة لبصرى وإدلب اللتين وقعتا بأيدي المتمردين خلال فصل الربيع، نجحنا بإخفاء بعض القطع الأثرية في مكان آمن.

• تعرضت المواقع الأثرية إلى أعمال تنقيب غير مشروعة، كيف تجري هذه الأعمال؟

يوجد في ماري قصر رائع يعود تاريخه للقرن الثاني قبل المسيح، وقام علماء الآثار الفرنسيون بالتنقيب فيه خلال أكثر من ثمانين عاماً. تقوم مجموعات صغيرة من اللصوص بتوظيف بعض العمال الجاهلين مقابل راتب جيد بالدولار. لكن هناك أيضاً المافيات التركية واللبنانية التي تبيع القطع الأثرية في السوق السوداء في الخليج وأوروبا. طلبنا مراراً من تركيا والأردن تسليمنا صور القطع التي يملكونها بعد العثور عليها، لكن الجواب كان بالرفض دوماً. إن لبنان هو الوحيد التي تعاون، وأعاد تسعين قطعة من الموازييك والتيجان والتماثيل التدمرية. لقد أطلقنا نداء دولياً لتعزيز الرقابة على الحدود منذ دخول المافيات عام ٢٠١٣. للأسف، لم يصغ أحد لنا لأن الناس ينظرون إلينا كرجال سياسة. إن الحفاظ على التراث السوري هو مسؤولية دولية، يجب على فرنسا وبقية الدول الأوروبية أن تضغط على بعض جيراننا من أجل التعاون ضد التنقيب غير الشرعي.

• إضافة إلى داعش، من المجموعات المسلحة الأخرى التي تقوم بالنهب؟

بدأت سرقة المواقع الأثرية قبل وصول داعش. سرقت مجموعة أحرار الشام المصرف المركزي في الرقة في شهر آذار ٢٠١٣، وكنا قد خبأنا فيه خمسمئة وسبعاً وعشرين قطعة أثرية. تفاوضنا معها خلال أكثر من عام، ولكننا لم ننجح في استعادة أي قطعة سيراميك أو قطعة نقود معدنية حتى الآن. نأمل أنه لم يتم بيعها في السوق السوداء. فيما يتعلق بجبهة النصرة، لم تقم بأي جهد حقيقي ضد المافيات التي كانت تعمل تحت أنظارها في وادي الفرات.

• من الدول الأوروبية التي ما زلتم تتعاونون معها؟ إضافة إلى اليونيسكو التي تساعدنا كثيراً، إن الدولة الوحيدة التي تشجع مؤسساتها على التعاون معنا هي ألمانيا التي لم تُغلق معهدها الأثري في دمشق وحافظت على فريق عمل محلي صغير، وكذلك إيطاليا والنمسا. فيما يتعلق بفرنسا، إن علماء الآثار في المدرسة العليا في باريس هم الوحيدون الذين يساعدوننا بشكل شخصي، إنه أمر يدعو للأسف، يجب على فرنسا مساعدة علماء الآثار السوريين.

معرض الخريف السنوي... لغة اللون تتجدد انتصاراً لأمل الحياة السوريّة

تعددت الأساليب لتشكل لوحة سوريّة أكثر حيويّة في زمنٍ صعب

| عامر فؤاد عامر
تصوير: طارق السعدوني

تتصف شكليّة الحدث بامتزاج رائحة الألوان مع ما ترمي إليه مشاركة ١٤٠ فناناً تشكيلياً في معرض «خريفي – شتوي» ازدهر بتعدد تلك الألوان، والمعاني عبر لوحات تشكيليّة غنيّة في سوريتها، ومنحوتات ذات إيقاع تتناغم مع حدث إقامة معرض الخريف السنوي ٢٠١٥ الذي احتضنه بشغف خان أسعد باشا الأثري، المعماري، الذي يحمل لوناً آخر من الحضارة، والسلام، والشهادة على أصالة الإنسان على أرض الشام.

تنوّع واهتمام

افتتح المعرض وزير الثقافة «عصام خليل» وعدد كبير من الحضور بين إعلاميين وفنانين وزوار ومرتادين وشخصيّات نقابيّة وغيرها، من اللافت للانتباه تنوع المشاركة والاهتمام الحافل بعدد القطع واللوحات المعروضة فكانت ٣٠٠ عمل فني، مع اختلاف في التسميّات، والدلالات، وتشكيلة كبيرة منَ المذاهب الفنيّة ما بين الحداثة، والتقليد، والمعاصرة، ما بعد الحداثة، ويستمر المعرض الذي كان افتتاحه في ١٦ تشرين الثاني لغاية ٢٧ منه.

عشق وحراك

مديريّة الفنون الجميلة في بادرة متجددة منها تعهدت باقتناء الأعمال المشاركة من قبل وزارة الثقافة، إضافة لمشاركتها في الملتقيات الفنيّة العربيّة والدوليّة، ويضجّ المكان بالرؤى الفنيّة والأصوات الصادرة من إبداعات لا يمكن لها أن تُمحى من الذاكرة، فالمعرض قبل أكثر من ٥٠ عاماً كانت دورته الأولى، وما يزال يحمل الحنين لعشق الثقافة والحركة الفنيّة السوريّة التي حققت حضوراً لافتاً في المشهد العربي والعالمي، فكانت لوحة الفنان «عمر حمدي – مالفا» الذي ودعناه مؤخراً واحدة منها وشاهدة في هذا المعرض، تحاكيها لوحة أخرى للراحل «حيدر يازجي»، وفي لفتة خاصّة من الفنان «إحسان داغستاني» كان الشهيد «خالد الأسعد» رمزاً حاضراً في هذه المناسبة.

شام وحروف

تنوّعت الرموز واتسعت في هذه الدورة المتجددة من معرض الخريف التشكيلي، فهناك التصوير، والنحت، والغرافيك، وكانت للرمزية المباشرة وغير المباشرة طريقة واحدة في توزيع اللوحات، التي انسجمت، واختلطت في طريقة توزيعها تلك في أرض الخان، لتكون مضامين سوريّة بامتياز، تحمل لوحة متناغمة في الاختلاف دلالةً على التنوع، ففي جانب رأينا للشام مكانتها كما في لوحات الفنانين «أحمد أبو زينة»، و«خليل عكاري»، و«ناثر حسني»، وحضور خاصّ للحرف، والكلمة فيها كاللوحات الحروفيّة للفنانين «محمد غنّوم»، و«أكسم طلاع»، ورمزيّته في لغة شعريّة مبطّنة، ومن اللوحات التي جاءت في سياق القصد للأرض والوطن والتراب لوحة «تدمر... احترف الحزن والانتظار» للفنان «نبيل سمان»، وللفنان «نضال خويص» ولوحة «ذاكرة سورية»، والفنان «حسين صقور» ولوحة «وطن الفينيق»، وأيضاً الفنان «فؤاد أبو عرابة» في لوحته «سورية يا حبيبتي»، والفنانة «غادة حداد» في لوحة أسمتها «سورية الأمّ»، ولم تنس التشكيلات السوريّة قدسنا وفلسطيننا، فكانت لوحات الفنانين «علي سرميني»، «القدس عروس عروبتنا»، و«عبد المعطي أبو زيد»، « روس القدس».

محاكاة

في المعرض محاكاة حقيقيّة لواقع ألمّ بنا، فجعل من الريشة والألوان تصرخا في عالم التشكيل، فتجسّدت في أكثر من مكان، كما رأينا في لوحات الفنانين: «أنور الرحبي» و«هجرة إلى الشمال»، و«موفق مخول» و«فرح وحزن ولمسة»، و«عبد الحميد فياض» ولوحته «الشهيد»، و«صلاح الدين الخالدي» في «العزيزيّة»، وغيرها الكثير من المشاركات التي اعتصرت إيقاعها من واقع مرّ، وألم اجتر الإنسان في سورية على مدى ٥ سنوات مضت.

لغة الحياة

«بقايا» هي لوحة قدّمتها الفنانة التشكيلية «جميلة كاترينا» وتقول عنها: «هي لوحة صوّرت فيها ولادة الإنسان، ومراحل حياته، ومشاكله، وقصدّت منها تجسيد فكرة أن الإنسان عندما يموت لا يبقى منه إلا صورة على الحائط، ورغبت أن أبيّن باستخدام ألوان زيتية حارة ظروف الموت والحياة لدينا، وذلك دعماً للفكرة الأساسية وهي أنّنا موجودون ولن نموت، ونحاول ممارسة حياتنا الطبيعية».

وجوه ورموز

أيضاً يمكن الإشارة لحضور الوجه السوري في حركة المعرض ما بين رمز ومباشرة، فكان منها ما يشير للإشادة بثقافة الحياة، وتهميش حالة الموت المتكرر، والتصويب نحو المرأة وحضورها وانتصارها، وصولاً للمدينة السوريّة والحضارة التي لا تضاهيها حضارة على وجه المعمورة، ومن هذا الإيقاع وجدنا مشاركات الفنانين: «إسماعيل نصرة» في «سقط القناع»، و«متاهات» لـ«جمال العباس»، و«الحامل» لـ«فايز عبد المولى»، و«إحسان أبو عياش» ولوحة «جينات»، و«هند زلفة» ولوحة «بين صباح ومساء»، و«مضر سليمة» في «الهجرة»، و«لطف الله حلاق» في «الوجه الآخر للمرأة»، و«عبد الإله خان» في «وجوه»، و«سائد سلوم» في «جسور إنسانية».

أصالة متجددة

أسماء كثيرة شاركت في المعرض وحضرت بتميّز وتفرّد، فكانت زاهية بالمعنى، وقويّة في اتجاهها، ولا يسعنا ذكرها كلّها، وفقط بالإشادة بها، وبتشجيعها في بناء مثل هذه المبادرة، والعمل على رفدها، بالمشاركة الفاعلة، وإحياء المشهد الثقافي الفني السوري الغني والمتميّز، فشكراً لتعاونهم وحضورهم من كلّ المناطق السوريّة لإحياء دورة معرض الخريف الحاليّة، فإن كانت ألواناً مترامية الدلالات فهي جهود صبّت في إناء مشترك يدعو للاعتزاز بوفرة المحبّة للعمل الإبداعي في وقت صعب ومكان عانى من ألوان الدم والظلم، وهذا بعد حضاري جديد يدل على ثقافة المقاومة المتأصلة والمتجددة.

صناعة الحياة في النحت

للنحت والمعروضات النحتيّة وجودها المميز أيضاً، فالأساليب مختلفة، تعكس هواجس داخليّة مستقاة من الواقع، وفيها مصدر للأمل وصناعة للحياة، ومن اللافت ذكر بعضها كمنحوتة «تكوين امرأة» للنحات «عبد العزيز دحدوح»، و«حالة حبّ» لـ«وسام قطرميز»، و«رجل من هذا الزمن» لـ«معروف شقير»، و«اقرأ» لـ«عبد الله العك»، و«هيثم القحف» في منحوتة «جدل»، و«ميسون حبل» في منحوتة «لماذا؟» وغيرهم الكثيرون أيضاً، وقد التقينا النحات «غازي كاسوح» الذي قدم تشكيله بمسمى «عبق الياسمين»، وقال عنها: «المنحوتة من خشب الزيتون، وهي حالة من التواصل الإنساني، تعبيريّة تجريديّة. تتألف من خطوط منحنيّة، ومتواصلة تتشكل من خلالها جموع إنسانية تدل على العودة برؤية نحو المستقبل الذي تبني من خلاله أملاً جميلاً، من خلال الكرة القابعة في أعلى العمل، وهي رمز للضوء والفضاء والشمس، أمّا الفراغات بين الخطوط فتشكل مجموعة من الانحناءات الدّالة على العودة إلى التواصل بين أبناء الوطن» وطن الحضارة والجمال «سورية».

مقاومة

يعدّ معرض الخريف ٢٠١٥ دورة متجددة في حضور عدد كبير من الفنانين التشكيليين السوريين من أعمار متعددة ومتباينة، ففيه أعمال لفنانين كبار مشهورين، وفيه مشاركات لفنانين صاعدين، وهو خطوة مهمّة لفائدتهم وتعلّمهم، وهو دلالة على الأمل، ورغبة في توضيح صورة حقيقيّة لرغبة الفنان في المقاومة والتعلّق بأمل الحياة، ورفض اللغة الغريبة عن الإنسانية التي تتجسد في الإنسان السوري.